اشهر علماء الانكليز وشعرائهم ومشى في جنازته اكبر عظمائهم وعلمائهم مثل دوق ارجيل ومركيز دفرن وارل سليبرن واللورد كانن والاستاذ جوت . وارسلت المدارس الجامعة في اكسفرد وكمبردج وايدنبرج وغلاسكو نوّابًا عنها وهم كلفن وهكسلي وايفانس وفوستر وغيكي ولكبير ورثاه الشاعر الفرد اوستن الذي يظنّ انهُ يخلفهُ في منصبهِ برثاة طويلة قال فيها ان انكلترا تبكي عليهِ لا بدموع الحزن والمرارة بل بدموع بهطل كالوسمي (مطر الربيع) الذي يحيي ازهار الربيع

طب المعادن

نقل الينا بعض الذين ذهبوا الى اوربا في الصيف الماضي وشاهدوا غرائب باريس انهم رأوا الاطباء يداوون بالمعادن فيضعون قطعة من المعدن على عضو انسان ويجرون فيها المجرى الكهربائي فيزول الالم من ذلك العضو او ينتقل من عضو الى آخر او من شخص الى آخر . فلم نعجب مما رووهُ لنا بل من بناء هذه الخرافات الى يومنا هذا وصبرها على نار البحث والانتقاد التي تمحص التعاليم والاراء . فان طب المعادن هذا ابتدع في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن واستولى على عقول العامة والخاصة في اوربا واميركا . ففي سنة ١٧٨٥ اكتشف غلفني السيّال الكهربائي من اتصال معدنين فشاع للحال ان هذا السيال يشفي من جميع الامراض وبعد نحو عشر سنوات قام الدكتور بركنس في كنكتيكت احدى ولايات اميركا وادّعى انهُ اكتشف معدنين يوصلهما بقوة خفيّة فيطيران بجذبان المرض من المريض فيشفى حالاً وتعود اليهِ القوة الحيوية بمجرّد ذلك اعضائهِ بهما واذا لم يزيلا المرض تمامًا خففاهُ كثيرًا . وحملت الجرأة هذا الرجل حتّى استدعى علماء الارض الى المناظرة والمساجلة ودليلهُ على صحة دعواهُ الذين شفاهم بمعدنيهِ

وكان علم الفلسفة في ذلك العصر مستعدًّا لقبول الغرائب والتسليم بها وعقول البسطاء خالية من دواعي الشك والانتقاد ونفوس اهل الهوس اطوع من مطيّة الركاب تنقاد بكل ريح تعليم كريشة يهبّ الرياح فتأثر بما حولها واذاعوا صيتهُ فلم تمضِ سنتان حتّى طبق البلاد واقرّت ثلاث مدارس طبية على فائدة هذين المعدنين ونصرهُ عدد عديد من القسوس واعضاء مجلس النوّاب ورجال الحكومة ونال براءة من الحكومة ممضاة بامضاء وشنطون رئيسها الاول اقرارًا بفضلهِ ونفع اكتشافهِ لنوع الانسان

وأُلفت الكراريس والخطب والكتب في هذا الموضوع ونُشرت في اقطار البلاد وفيها شرح الفوائد الناتجة عن التداوي بهذين المعدنين واسباب فعلها علمًا وفلسفيًا وكيفية استعمالها

وسنة ١٧٩٨ جاء بركنس الى مدينة لندن واشتهر امرهُ فيها حالاً ولم يمضِ وقت طويل حتى انشئ فيها مستشفى سمّي بالمستشفى البركنسي واقيمت لادارته لجنة من وجوه البلاد ونخبة اعيانها يرئسهم اللورد ريفويس وتصدق الاغنياء باموال طائلة لمداواة الفقراء والمعوزين . وانشئت اماكن كثيرة للتطبيب المجاني واقيم فيها الاطباء يعالجون بهذين المعدنين ويدّعون بشفاء جميع الامراض وكانت الخطب تتلى على الطلبة في فلسفة هذا العلاج حتى اذا اتقنوا استعماله ارسلوا لتعليم غيرهم . وكان الاغنياء يتداعون المعدنين ويطببون انفسهم بها والفقراء يكتفون بتطبيب غيرهم لهم . وجُمعت الشهادات من الذين عولجوا وشفوا فبلغ عددها عشرة آلاف وبينهم اناس من الامراء والحكام والاساقفة والاساتذة والاطباء والوجهاء وشاع الاعتقاد بان المكتشف لهذين المعدنين من المحسنين على نوع الانسان والخالدين الذين لا يتسلط الموت عليهم وأُقرّ مذهبه بين المذاهب العلمية

ولم يمضِ زمن طويل حتى انقشعت غيوم الاوهام وزال التمويه عن وجه الحقيقة فان اثنين من الاطباء صنعا قطعًا من الخشب تشبه قطع المعدن المشار اليها وعالجا الامراض بها فكانت تشفي كما تشفي بقطع المعدن ووردت الشهادات عليها من الذين شفوا بها كما وردت على بركنس وانهالت عليها الاموال كما انهالت عليهِ فلما اغنيا واستغنيا عن التدجيل نشرا سر علاجها فانقشعت غيوم الوهم حالاً ولما لم يعد احد يصدق بقوة المعادن لم يعد احد يشفى بها

والسرّ في ذلك حب المال الذي يعمي البصائر ويحمل على ارتكاب الخداع بل على ارتكاب الكبائر ووجود كثيرين من اهل الهوس وسخاف العقول الذين يتوهمون انهم مرضى فيشعرون بالمرض كما يشعر بهِ المريض ثم يتوهمون انهم شفوا فيعودون اصحاء

وكان يُزعَم ان المعدنين المذكورين ذهب وفضة وهما في الحقيقة نحاس اصفر وحديد مصقول لا يزيد ثمن كل اثنين منهما على ثلاثة غروش فكانا يباعان بخمسة جنيهات - ولا تسأل عن المال الذي انهال على صنّاعها وباعتها بسببها وكم للجهل من ملكٍ تروجُ وكم للوهم من سلطة وسطوة . والعلم يمزق حجاب الوهم ويزيل اسباب التضليل ولكنّ حبّ المال يحمل بعض اهل العلم على استعمال علمهم لخداع غيرهم ولولا ذلك لقلّت سلطة الجهل ولم نعد نسمع بطب المعادن ولا بغيره مما يجري مجراهُ